Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

إرفنغ غوفمان والظاهرة الاتصالية

- قراءة ابيستمولوجية في أهم أفكاره التنظيرية-

Erving Goffman and the communication phenomena

Epistemological reading in his most important theoretical ideas

باديس لونيس
Badis Lounis
Badis.lounis@gmail.com
جامعة باتنة1
University of Batna 1

تاريخ الاستلام : 2018-09-07
تاريخ القبول : 2018-11-22

ملخص :

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تقديم قراءة ابيستمولوجية، لأهم أفكار إرفنغ غوفمان التنظيرية، وذلك بالتطرق إلى مفهوم النظام التفاعلي عنده، وموقع الظاهرة الاتصالية في سلم اهتماماته، وتسليط الضوء على مساهمته التنظيرية في إطار براديغم التفاعلات الرمزية، من خلال نظريتي: إدارة الانطباعات، وتحليل الإطار .لنصل في الأخير إلى استعراض أهم الانتقادات التي وجهت إليه ومحاولة مناقشة أفكاره بمقارنتها بنظريات أخرى (نظرية اخذ الأدوار، نظرية الوسم، مفهوم المرآة الاجتماعية). وذلك بغية تحقيق هدف أكبر وهو لفت نظر الباحثين الناطقين باللغة العربية إلى التراث الفكري العالمي الذي خلفه عالم بحجم إرفنغ غوفمان، والاستفادة من تجربته العلمية الحافلة.

الكلمات المفتاحية: إرفنغ غوفمان، النظام التفاعلي، الاتصال، إدارة الانطباعات، تحليل الإطار، التفاعلات الرمزية.

Abstract :

This paper aims to provide an epistemological reading of Irving Goffman's important theoretical ideas by addressing his concept of interactive order, and his interest in the phenomenon of communication. Moreover it present his theoretical contribution (Impression management, frame analysis theories), within symbolic interactionism, as well as; it provides a review of the most important criticisms against him. It also, discuss his ideas by comparing them with other theories (role taking theory, Labeling theory, social mirror concept). The main aim of this paper is to draw attention of Arab academics to the intellectual and scientific heritage of a great scientist such as Irving Goffman, and to take advantage of his great scientific experience.

Keywords: Irving Goffman, interactive order, communication, Impression management, frame analysis, symbolic interactionism.

مقدمة:

جاءت أربعة من مؤلفاته ضمن قائمة أفضل مائة كتاب في علم الاجتماع حسب الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع (ISA) **(Reguera, 2016)**؛ هذه الكتب هي: كتاب تقديم الذات في الحياة اليومية (***The Presentation of Self in Everyday Life***) نشره سنة 1959م جاء في المرتبة 10، كتاب المصحات (**Asylums**) ألفه سنة 1961، جاء في المرتبة 33، ثم كتاب الوصمة (**Stigma**)، ألفه سنة 1963، جاء في المرتبة 44، وأخيرا كتاب تحليل الإطار (**Frame Analysis**) والذي ألفه سنة 1974، جاء في المرتبة 91. إنه إرفنغ غوفمان (**Erving Goffman**) المولود سنة 1922 في مانفيل بألبرتا الكندية، لعائلة من أصول يهودية أوكرانية، درس في جامعة شيكاغو، حيث نال شهادة الدكتوراه سنة 1953 عن أطروحته (**ommunication Conduct in an Island Community**). مارس التدريس بعض الوقت في جامعة شيكاغو، بيركلي وبينسيلفانيا، توفي بعد إصابته بمرض السرطان عام 1982 **(Burns, 1992, pp. 9-13)**.

1- هذا العالم الذي جعل البعض يرتبك في تصنيفه؛ فقد كان ينتقل بين التنظير والممارسة البحثية بطريقة يصعب فيها فصل الحالتين ووضع خطوط واضحة بينهما. كما أنه كان يشتغل تحت مظلة أكثر من تخصص علمي (علم الاجتماع، علم النفس الاجتماعي، أنثروبولوجيا الاتصال، اللسانيات). كما أنه أثار الكثير من النقاش حول طريقته في البحث، والتي - على غرار الباحثين المنضوين تحت براديغم التفاعلية الرمزية- جاءت متمردة، على التيار الوضعي الصارم الذي كان سائدا قبل ذلك، فقد كانت نزعته ذات خلفية ابيستمولوجية تأويلية، تشجع وتروج لممارسات بحثية كيفية أكثر ليونة، ويصبح الباحث فيها أكثر انغماسا في الظاهرة المدروسة.

2- إن ذلك الارتباك الذي يعتري الباحثين فيما يتعلق بتوجهات غوفمان سوف لن نجد له أثرا حين نكون بصدد الحديث عن اهتمام غوفمان بموضوع الاتصال؛ الذي يمكن النظر إليه على أنه التيمة الثابتة في أعماله. فقد حلل التفاعلات الاجتماعية وطقوس اللياقة والمحادثات، وكل ما يشكل شبكة العلاقات اليومية. وفيها نظر إلى التفاعل كمنظومة تتأسس على طريقها الثقافة. تمتلك هذه المنظومة معايير وآليات للتنظيم. تلكم مثلا هي حالة "وجوب الالتزام" وهي القاعدة الاجتماعية التي تنص على أن كل شخص داخل في نقاش مع آخر يجب أن يبدي التزاما كافيا في هذا النشاط: "النقاش، بصفته بؤرة انتباه رئيسية، يمتلك صفة فريدة، لأنه يخلق بالنسبة لمن يشاركون فيه عالما وواقعا يشارك فيهما الآخرون أيضا" (كابان و دورتيه، 2010، صفحة 119). فالتفاعل/ الاتصال وجها لوجه، كان دائما بؤرة اهتمام غوفمان على مدار مسيرته العلمية. والمحور الذي تدور عليه ومن خلاله جل مفاهيمه وأفكاره والقواعد التي حاول التنظير لها في أغلب كتاباته إن لم نقل جميعها، وتجلت بشكل واضح من خلال منظوره "المسرحي" المشهور.

هذا المنظور الذي أكسبه بالاظافة إلى ممارساته البحثية المتنوعة والغنية، مكانة مرموقة في الفضاء العلمي الغربي في شقه المتعلق بالعلوم الاجتماعية، وصار اسمه يستحضر في أكثر من مجال وتخصص؛ علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي وأنثروبولوجيا الاتصال واللسانيات في فرعها التداولي. ولكن ورغم هذه المكانة المميزة التي احتلها غوفمان، فإنه يكاد يكون غائبا في الفضاء العلمي العربي الإسلامي. ولا يعدو ذكره أن يكون شكليا وعابرا، وغالبا ما يكون على شكل إشارة له، في خضم تقديم براديغم التفاعلات الرمزية، باعتباره أحد أهم ممثليها ومطوري أفكارها وافتراضاتها عن العالم (تنظيرا وممارسة بحثية). دون محاولة تجاوز ذلك إلى الخوض في مساهماته الفكرية والتعمق في انجازاته الرائدة.

لذلك تأتي هذه الورقة البحثية، بهدف تقديم قراءة ابيستمولوجية (على أساس أن الابيستمولوجيا هي دراسة نقدية لعلم ما؛ من خلال الأفكار والافتراضات والنظريات والمناهج)، لأهم أفكار إرفنغ غوفمان التنظيرية، وذلك بالتطرق إلى مفهوم النظام التفاعلي عنده، وموقع الظاهرة الاتصالية في سلم اهتماماته، وتسليط الضوء على مساهمته التنظيرية في إطار براديغم التفاعلات الرمزية، من خلال نظريتي: إدارة الانطباعات، وتحليل الإطار. لنصل في الأخير إلى استعراض أهم الانتقادات التي وجهت إليه ومحاولة مناقشة أفكاره بمقارنتها بنظريات أخرى (نظرية اخذ الأدوار، نظرية الوسم، مفهوم المرآة الاجتماعية). وذلك بغية تحقيق هدف أكبر وهو لفت نظر الباحثين الناطقين باللغة العربية إلى التراث الفكري العالمي الذي خلفه عالم بحجم إرفنغ غوفمان، والاستفادة من تجربته العلمية الحافلة .

لذلك سنحاول، الإجابة على التساؤلات الآتية:

- كيف ينظر إرفنغ غوفمان إلى الظاهرة الاتصالية؟
- ما هي أهم أطروحات غوفمان التنظيرية؟

- ما هي أهم الانتقادات التي وجهت إلى أفكار غوفمان؟

2. النظام التفاعلي؛ الاتصال كحتمية:

سأحاول من خلال هذا العنصر التعرف على مفهوم النظام التفاعلي عند غوفمان وعلاقته بالاتصال وفكرة حتمية الاتصال، ثم محاولة استعراض بعض القواعد التي حاول غوفمان وضعها للنظام التفاعلي الذي يروج له وهي تشكل في حد ذاتها أشكالا وأنماطا للاتصال وجها لوجه.

1.2 في مفهوم النظام التفاعلي عند غوفمان:

إن اهتمام غوفمان بالاتصال وجها لوجه يلخصه ما قاله في محاضرته الأخيرة "نظام التفاعل"، إذ صرح قائلا: لقد كان شغفي منذ سنوات هو تعزيز هذا المجال (وجها لوجه) كمجال قابل للتحليل، مجال يمكن تسميته "نظام التفاعل"، المجال الذي يفضل منهج التحليل المصغر **(Bonicco, 2013)**. لو عكسنا كلام غوفمان هذا، فإننا سنجده يقول لنا، بطريقة أخرى، أن "نظام التفاعل" ما هو إلا دراسة وتحليل مجال الاتصال وجها لوجه. هذا الكلام يتأكد في مقام آخر حين عرف دراسة النظام الاجتماعي بأنه "ليس دراسة جماعة ما، ولكن دراسة السلوكيات التي تنتج في جماعة ما. هذه السلوكيات تدل على استحالة أن لا نتصل كما يقول منظروا مدرسة بالو ألطو **(Palo Alto)** الأمريكية، لهذا يضيف (غوفمان) في دراسة أخرى من دراساته، "عندما يجتمع أفراد في وضعيات ما تفرض أن لا يتم تبادل الكلمات وفعل الكلام، فإنهم سواء أرادوا أو لم يريدوا، يدخلون في شكل من أشكال الاتصال،.. فحتى وإن توقف الشخص عن الكلام فإنه لا يمكنه أن يمتنع عن الاتصال بلغة الجسم (بوجمعة، 2010، صفحة 58).

ليس من الصعب إذن استنتاج مدى الترابط الذي يحكم بين دراسة النظام الاجتماعي والنظام التفاعلي والاتصال بالنسبة لغوفمان. فهي كلها وحدة واحدة لا يمكن فصلها. فدراسة النظام الاجتماعي ما هو في أصله سوى دراسة لنظام تفاعلي ينطلق من وحداته الصغرى التي تتلخص في اتصال بين شخصين وجها لوجه. كما أن هذا النظام ينطلق من فكرة روجت لها مدرسة ألتو بالطو بشكل خاص، وتبناها غوفمان بوضوح وهي "حتمية الاتصال" التي تعني أننا لا يمكن ألا نتصل، حتى لو توفرت الرغبة في ذلك، فحين نعتقد أننا لا نقوم بعملية إرسال رسائل فإننا بشكل آخر نكون قد أرسلنا رسالة تعبر عن ذلك حتى بالتزامنا للصمت.

إن هذه الحتمية هي التي تشكل الخلفية التي ينطلق منها غوفمان في جميع دراساته، والقاعدة التي تؤسس لبقية القواعد التي حاول من خلالها أن يشرح ويفسر نظام تفاعل ما في مجتمع ما. والذي يراه غوفمان (أي نظام التفاعل) ينبغي أن يعامل كمجال جوهري وأساسي وكمجال مستقل. ويضع غوفمان بعض الوحدات الأساسية والبناءات المتكررة لنظام التفاعل مرتبة من الأصغر إلى الأكبر:

1) الأشخاص سواء أكانوا آحادا، أم أزواجا، أم مواكبا، أم أرتالا.

2) الاتصالات، إما من خلال الحضور الفيزيقي المشترك، أو من خلال المحادثات الهاتفية، أو من خلال تبادل الرسائل.

3) المواجهات أو الترتيبات التي ينضم فيها الأشخاص إلى دائرة فيزيقية صغيرة كمشاركين واعين في مشروع مشترك قائم على الاعتمادية المتبادلة.

4) منصة الأداء وتشمل المكان الذي يهيأ فيه النشاط قبل الجمهور (مثلا: المناقشة، سياق الكلام أو المحيط، والاجتماع الرسمي، واللعب والعرض الموسيقي)

5) المناسبات الاجتماعية الاحتفالية، وهي جموع من الأفراد، في مناسبة ذات شرف وتحظى بتقدير مشترك حيث يصل المشاركون ويغادرون بطريقة منسقة. وهذه الوحدة الأخيرة تمثل الوحدة التفاعلية الأكبر التي يذكرها غوفمان حيث أن هذه الوحدة يمكن أن تتم هندستها لتمتد إلى عدد من الأقسام (والاس و وولف، 2011، صفحة 397).

ويعتقد غوفمان أن الفاعل في المجتمع يعاين وينقل ويجذب باستمرار، ويصف وضعية وجود الفرد وسط أفراد آخرين في المجتمع بالقول "عندما يوضع الفرد في حضور أشخاص آخرين، فإن هؤلاء الأفراد يبحثون عن الحصول على معلومات تخصه، أو يقومون بتبليغه بالمعلومات التي تكون بحوزتهم، فهؤلاء يقلقون من نظامه الاجتماعي والاقتصادي، قلقون من الفكرة التي يصنعها عن نفسه، من كفاءته، من نزاهته، وقضايا أخرى كثيرة، وهذه المعلومات لا يبحث عنها لذاتها، ولكن لأسباب عملية: فهذه المعلومات تساهم في تحديد الوضعية، من خلال تمكين الآخرين من توقع ما ينتظره منه وشريكه منهم، وبالتالي ما يمكن أن ينتظرهم (بوجمعة، 2010، صفحة 59). ولقد جعل غوفمان من القواعد المشكلة "لطقوس التفاعل" على اعتبار أن حوادث السلوك

الإنساني تنتمي إليها وإلى لحمة المحيط الاجتماعي، بحثا ذاتيا (أرمان وميشال، 2005، صفحة 152). مؤكدا على ضرورتها لاستمرار أي نظام اجتماعي، حيث يقول في الفصل المعنون "بالنظام الاجتماعي والنظام التفاعلي" والوارد في أطروحة الدكتوراه التي أنجزها: "عندما لا تحترم القواعد، أو عندما يظهر أن لا توجد أية قاعدة قابلة للتطبيق، يتوقف المشاركون عن معرفة كيفية التصرف، أو معرفة ما ينتظره الآخرون منهم، فعلى المستوى الاجتماعي، فإن عملية إدماج نشاطات المشاركين تنشطر، ونتاج ذلك يعاني المشاركون من الفوضوية والتوتر ومن التشويش الفردي (بوجمعة، 2010، صفحة 59).

إذا أردنا أن نقرب الصورة أكثر حول مكانة الظاهرة الاتصالية في سلم اهتمامات غوفمان، فإنه علينا العودة إلى أطروحته التي قدمها لنيل الدكتوراه، وبشكل أدق علينا النظر في الفصل الخاص بالنظام التفاعلي من أطروحته، سنجده بمثابة ولوج مثالي إلى عالم "الغوفمانية" للتفاعل كعملية اتصالية. كما يمكن اعتبار آخر محاضرة له كرئيس للجمعية الأمريكية للسوسيولوجيا والمعنونة بـ"نظام التفاعل"، الحالة النهائية لتنظيره؛ يبدأ غوفمان من ما يسميه "النظام الاجتماعي" بافتراض أن هذا النظام "الاجتماعي الكلي" ينطبق على المستوى الاجتماعي المصغر، على سبيل المثال على "المحادثة بين شخصين حقيقيين" **(Dubar, 2018)**. إذن فحياة غوفمان العلمية بدأت بالاهتمام بالظاهرة الاتصالية، وانتهت مع نفس الاهتمام.

وبالعودة إلى النظام الكلي الذي تحدث عنه غوفمان، نجده يعني: تكامل العناصر الفاعلة، والتوقعات المتبادلة، والقواعد الاجتماعية المعيارية، والعقوبات على الانحرافات، والتصويبات التي أُجريت على الانحرافات، إلخ. ومع ذلك، فهو يلاحظ، في معظم التفاعلات التي لاحظها، أنه لا يسيطر على هذا النموذج القسري وإنما "سلوك الإقامة" الذي يمكن للشركاء من خلاله "الحفاظ على التفاعل"، تم تجاوزها. وهو يصف قبول العمل بهذا النوع من التسوية، وهذا "عمل التسامح" الذي يبين، بحسب قوله، أن التفاعل وجها لوجه يشكل نظامًا معينًا من التحول الاجتماعي غير القابل للاختزال إلى تغيير بسيط للنظام الكلي. يخضع نظام التفاعل هذا "للافتراضات المسبقة المعرفية والمعيارية" و"الاتفاقيات والمعايير والقيود" المتعلقة بظروف وسلوكيات معينة: "إن خط انتباهنا البصري، وشدة التزامنا، وشكل إجراءاتنا الأولية تسمح للآخرين بتخمين قصدنا وهدفنا الفوري [...]. بالمقابل، نحن قادرون على تسهيل هذا الكشف أو منعه، أو حتى تضليل أولئك الذين يراقبوننا. هناك مجموعة كاملة من "الاستراتيجيات الفائزة"، منذ التعاون حتى الحرب الباردة **(Dubar, 2018)** .

2.2 قواعد الاتصال وجها لوجه:

لقد ركّز غوفمان مجهوداته في ملاحظات عميقة وطويلة لسلوكات الأفراد، وهم منهمكين في حياتهم اليومية، للخروج باستخلاص مجموعة من القواعد التي تنظم تلك السلوكات، ومجموعة من الأشكال التي تبسط وتوضح أنواع الاتصالات القائمة بينهم. وفيما يلي نورد بعضا من تلك الأنماط/ المفاهيم، كمحاولة لتقريب صورة تلك المجهودات:

التسوية/ التكيف: في كتابه عن المصحات (**Asylums**) الذي ظهر سنة 1961. تطرق غوفمان إلى مفهوم التسوية (**Adjustment**) وهو حسب تعريفه له أقرب إلى أن يعني التأقلم أو "التكيف" (**Adaptation**) فهو يعني حسبه أن يساهم الفرد بشكل تعاوني بالنشاط المطلوب لمنشأة ما وتحت الظروف المطلوبة في مجتمع ما. مع دعم المعايير المؤسسية للرعاية، والدافع الذي يتم توفيره من خلال الحوافز والقيم المشتركة، ومع فرض عقوبات محددة يتم تحويله إلى متعاون؛ يصبح "طبيعيًا" أو "مبرمجًا" أو عضوًا مدمجًا. وقسم غوفمان التسوية إلى نوعين: **تسوية أولية:** حيث يحاول الفرد احترام القوانين الداخلية للمؤسسة. **وتسوية ثانوية:** وتعني هذه التسوية أي ترتيب معتاد يستخدم فيه أحد أعضاء إحدى المنظمات وسائل غير مصرح بها، أو يحصل على غايات ممنوعة، أو كليهما؛ يتعلق ذلك بافتراضات المنظمة فيما يجب عليه القيام به والحصول عليه وما ينبغي أن يكون عليه (..) وتتمثل التسويات الثانوية في الطرق التي يبتعد فيها الفرد عن الدور والذات الذي قررتها له المؤسسة. ويؤكد غوفمان أنه ينبغي أن يكون من الواضح تماماً أن التسويات الأولية والثانوية هي مسائل تتعلق بالتعريف الاجتماعي وأن التكييف أو الحافز الذي يتم إضفاء الشرعية عليه في فترة معينة في مجتمع معين قد لا يتم إضفاء الشرعية عليه في وقت مختلف من تاريخه أو في مجتمع آخر **(Goffman, 1961, pp. 188-206)**.

الدور والتسلسل: يعتبر الدور من أهم المفاهيم التي ركز عليها غوفمان في مساره التنظيري، ويرى غوفمان أن الأدوار تفرض عليها مجموعة من المعايير التي تحدد واجباتنا على أنها الأفعال التي يقرر الآخرون مشروعية أدائنا لها، وتحدد أيضا الحقوق على أنها الأفعال التي يمكننا أن نقرر مشروعية أداء الآخرين لها. وكل دور يرتبط بدور آخر على الأقل، وما تعد حقوقا لدور تعد واجبات لدور الآخر. إذ لا يوجد دور منعزل، فهو (الدور) مجموعة مترابطة من الأنشطة تشترك مع الأنشطة الأخرى للناس، فلا يوجد زوجات من دون أزواج، ولا مريض بدون طبيب، ولا أستاذ بدون تلميذ، وعليه فإن ارتباط الأفراد معا في جماعات يتم خلال شبكة الأدوار المتبادلة. (كربوش، 2005، صفحة 134).

كما يرى غوفمان أن الدور يقع في صميم طقوس التفاعل، وللدور علاقة إلزامية بالتسلسل كما يبين غوفمان بقوله: "إنه موضع مشترك (وإن كان صحيحا) في تحليل الخطاب أن نقول إن الإجابات تتصل في معناها بدور الكلام السابق مباشرة. والذي من دونه لا يكون لتلك الإجابات أي معنى في الغالب وفي الواقع، فإن كلام الدور السابق يوفر لكلام اللحظة الراهنة إطاره المرجعي، إجمالا نحن هنا إزاء استلزام تسلسلي" (بلانشيه، 2007، صفحة 155). ولكن ماذا عن مفهوم الدور عند الوظيفيين؟ رغم التشابه بين المفهومين، لكن يجب الانتباه إلى الفكرة الإلزامية للدور/ الوظيفة، في إطار البراديغم الوظيفي. والتي تقابلها الفكرة المرنة والمرتبطة بالمعنى والصورة الذهنية والانطباعات لدى الأخر (أو الآخر المعمم كما يقول جورج ميد).

اللقاء والتفاعل المركز وغير المركز: يحدث التفاعل غير المركز عندما يتجمع الناس سويا، سواء كما هي الحال في الشوارع المزدحمة أو في قاعات السينما والاحتفالات أو الحفلات. وعندما يكون الواحد منا برفقة الآخرين أو على مقربة منهم فإننا نتواصل سويا وبصورة مستمرة من خلال الأساليب غير الشفوية مثل تعبيرات الوجه وحركات الجسم. ويحدث التفاعل المركّز عندما يتنبه الأفراد لما يقوله أو يفعله الآخرون. وباستثناء الحالات التي يكون فيها المرء واقفا بمفرده، كما قد تكون الحالة في تجمع أو احتفال أو حفلة اجتماعية، فإن التفاعل بين الناس قد يكون في الوقت نفسه مركّزا أو غير مركز. ويطلق غوفمان على هذا النوع من التفاعل اسم **"اللقاء"**، ويمثل هذا التفاعل الجانب الأكبر من التبادل الذي نجربه في حياتنا اليومية مع العائلة والأصدقاء وزملاء العمل. إذ نمارس اللقاء المركز وغير المركز في وقت واحد. كما قد يشمل مصطلح "اللقاء" حديثنا العابر مع الآخرين، والمناقشات والندوات والألعاب الجماعية والاتصالات الوجاهية الروتينية في المحلات والمطاعم وما إلى ذلك (غدنر، 2005، صفحة 171).

وتتميز لحظة بدء التواصل حسب غوفمان بنوع من المخاطرة لدى كثير من الناس، لأن الفرد لا يكون متأكدا وواثقا كل الثقة من طبيعة هذا التواصل أو اتجاه المسار الذي ستتخذه عملية التفاعل. أما في حالة التواصل المركز فإن المرء يعطي قدرا أكبر من الانتباه والاهتمام، ويزيد من تحكمه في وسائل التواصل المتاحة له مثل الكلام والحكي، وتعبيرات الوجه وإيماءات الجسم كما أن الأفراد يركزون مزيدا من اهتماماتهم لاكتشاف مدى الصدقية لدى الآخرين. وينبغي أن تُستهل جميع اللقاءات بافتتاح أو بنقطة بدء، وهذه البداية هي التي تؤذن بانتهاء حالة "الإغفال المهذب" (غدنر، 2005، صفحة 171). فالتفاعل المركز يعطي للمتصل قدرة أكبر على التحكم في زمام التفاعل وفي مساراته، لأنه يعطيه فرصة ممارسة كل أنواع الاتصال (اللفظي وغير اللفظي)، ليس للفت انتباه المتلقي فقط، ولكن لإبقائه أطول مدة تحت وقع كثافة التلقي.

الإغفال المهذب: وهو لا يعني تجاهل الآخرين كليا، لأننا نكون مدركين وواعين لوجودهم وحركتهم، ولكنه يعني امتناعنا عن اقتحام حياتهم وأنماط سلوكهم المعتاد في وضع معين. ونحن نتخذ مثل هذا الموقف الشعوري والسلوكي مئات المرات في حياتنا كل يوم بصورة عفوية. وذلك مثلما يفعله العابرون على جانبي الطريق في المدن تجاه الآخرين الذين يتوقعون منهم مثل هذا السلوك في الأحوال العادية. ومثل هذا الموقف . (غدنر، 2005، صفحة 158).

الأقلمة: إن مفهوم **"الأقلمة"** يساعدنا على فهم المسار الذي تتخذه الحياة الاجتماعية في حالة التقاء الزمان بالمكان، فالبيت الحديث على سبيل المثال، مقسم إلى ما يشبه الأقاليم المكونة من الحجرات وممرات وربما السقوف إذا كان المنزل يتكون من أكثر من طابق واحد. وهذه الفضاءات ليست مجرد مساحات مادية منفصلة بل إنها مصممة وفق منطق زمني معين. فحجرة الجلوس والمطبخ يستخدمان، على الأرجح خلال ساعات النهار والحمامات خلال الليل. وتتحكم التفاعلات التي تجري في هذه الأقاليم اعتبارات مساحية وزمنية. وبعض المواضع في ذلك البيت يشكل الخطوط الخلفية، بينما "الأداء" في مواضع أخرى. وفي بعض الأوقات يتحول المنزل كله إلى خطوط خلفية. ففي عطلة الأسبوع كما يقول غوفمان تستخدم الأسرة بمجموعها سور البيت أو جدرانه أو سياجه لحماية حياتها الحميمة الخاصة التي تشيع آنذاك في أرجاء جميع الحجرات، بما يشتمل عليه ذلك استرخاء في الحديث وارتياح في ارتداء الملابس. ويتحول أسلوب المعيشة برمته إلى أنماط من السلوك والتواصل والتفاعل كانت مقصورة على المطبخ وحجرات النوم (غدنر، 2005، صفحة 172). يبدو أن المكان يلعب دورا مهما في تحديد الأدوار والاداءات، فهو لا يقسمها فقط، ولا يساهم في تنظيمها فقط، ولكنه يعتبر خلفية تضفي على الاتصالات معانيها وتجعلها مفهومة أكثر، بل ومنمطة في كثير من الأحيان. تماما مثل الديكور في المسرح الذي يقوم بدور محوري في إيصال الرسائل للجمهور.

التواصل الخاضع: بتوسيعه للظواهر المؤثرة في التواصل وجها لوجه، انتبه غوفمان أيضا إلى ما أسماه بالتواصل الخاضع أي كلام يحتوي ويحدد وقته وقوّته بشكل يسمح له أن يتدخل جزئيا في ما قد نسميه التواصل السائد في نفس المكان. إذ من الممكن عادة للمشاركين أن يتكلموا خارج دورهم أو دون أن يحاولوا استئثار الكلام. يحصل هذا أحيانا كثيرة بواسطة الملاحظات السريعة، أو التوضيحات التي تضيف إلى المحادثة الدائرة دون وقفها رسميا أو تحويل عملها. وقد ميز غوفمان بين ثلاثة أنواع من التواصل الخاضع: (1) **اللعب على الهامش**؛ وهو توال بين

مجموعة ثانوية من المشاركين المصدق عليهم، (2) **اللعب المعاكس**؛ وهو تواصل بين مشاركين مصدق عليهم، (3) **اللعب الجانبي**؛ وهو تواصل بين متفرجين غير متدخلين (دورانتي، 2013، صفحة 491). (مع الإشارة إلى أن غوفمان يرى أن هناك أنواعا مختلفة من الناس الذين يسمعون ما يقال، ولكن القليل فقط من يسمح لهم أن يكونوا جزءا من الحدث التواصلي، فسمى هؤلاء بالمشاركين المصدق عليهم والآخرين مشاركين غير مصدق عليهم).

الأقواس المعترضة: ويطلق غوفمان اسم "الأقواس المعترضة" على علامات الفصل بين التفاعلات المركزة وغير المركزة (...) وعند لقاء الآخرين في حفل عام على سبيل المثال، فإن المرء "يتموضع" ويزداد تحكما بصوته وحركات جسمه. وعندها يدخل المرء سياقا صغيرا جديدا ويتخذ دورا قد يكون مختلفا عما يقوم به في أوضاع أخرى في حياته اليومية وتبرز في السياق العام لهذا الوضع علامات تميز بين كل دور وآخر من جهة، وبين سلسلة الأدوار المتعاقبة المتعددة من جهة أخرى (غدنر، 2005، صفحة 172). فالأقواس المعترضة هي بمثابة فواصل تنهي وضعا معينا، وتمهد لوضع جديد، وذلك في انسيابية ومرونة قد لا تكون واعية من الفرد في حد ذاته، ولكنها مهمة لتفادي حدوث انقطاعات مربكة في التواصل، أو استمرارية قد تكون محرجة.

بعد استعراضنا لهذه الأنماط، يتبين لنا مدى الأهمية الكبيرة التي أولاها غوفمان للاتصال غير اللفظي بالنسبة للسياق ولفهم العملية الاتصالية التفاعلية، حيث يقول مثلا: " إن القيد العام الذي يرضخ إليه كل تلفظ، ينسحب أيضا بشكل آخر على الأعمال غير اللسانية للسياقات الخرساء (بلانشيه، 2007، صفحة 93). هذا النوع من التواصل الذي لا يمكن دراسته إلا من خلال الانغماس في ومع الظاهرة المدروسة للتعمق فيها وتحليل حيثياتها ودلالاتها في سياقها الاجتماعي الطبيعي. وهذا ما فعله غوفمان كما سنرى في العنصر الخاص بممارساته البحثية.

3. من الحياة كمسرح إلى الحياة كأطر:

سيتم تحت هذا العنصر استعراض أهم أفكار غوفمان التنظيرية؛ ما يتعلق منها بمنظوره المسرحي الذي يؤسس فكره ونظرته للنظام الاجتماعي والنظام التفاعلي، بالاظافة إلى تحليل الإطار كنظرية جزئية أخرى تأسس على ذلك المنظور.

1.3 نظرية إدارة الانطباعات؛ الحياة كمسرح:

تنطلق هذه النظرية من خلفية ابيستمولوجية مفادها أن الإنسان كإنسان يرى الحقيقة وفقط بواسطة الرموز، فالعالَم الاجتماعي ليس نظاما ذاتيا والمعاني غير موروثة في السلوك، ولكن دلالة سلوك ما تكمن في المعاني المنسوبة إليه. إن الأفراد المشاركين في بناء تأويلاتهم للوضعيات الاجتماعية الخاصة يحاولون تقديم أفضل نظرة ممكنة عن ذواتهم أو النظرة التي يعتقدون أنها أكثر ملاءمة في تحقيق أهدافهم مهما كانت هذه الأخيرة (عزي، 1995، صفحة 49). ويُطلق على هذه النظرية أيضا، اسم "المنظور المسرحي" وهو مصطلح يستخدمه غوفمان بنفسه. حيث الأدوار (أي التوقعات التي تكون لدى الآخرين عن سلوكنا في ظروف معينة) هي بمنزلة نصوص نقوم بتمثيلها، ومن هنا اهتم ببيان الأساليب التي نسلكها لأداء أدوارنا (كريب، 1999، صفحة 122). ويتم تنفيذ هذه الأدوار في فضاءين اجتماعيين مختلفين "الجهات الداخلية" (الركح)، و"الجهات الخارجية" (الكواليس). فالجهات الداخلية هي التي يقوم فيها الفرد بدوره الاجتماعي (كأن يتمثّل وظيفته المهنية أو سُمعته). أما الجهات الخارجية، فهي التي لا يؤخذ فيها الفرد بمظاهره، ويمكنه فيها أن يمر إلى سلوك (خطاب) حميم و/أو مختلف. بل إن غوفمان حاول تصنيف الأدوار إلى ادوار صريحة (أي التي يصرح بها) وأدوار مفارقية (غير معترف بها، كالكومبارس الذي نجهل أنه موجود، أو اللاشخص، مثل سائقي الطاكسي أو النادل في المطعم) (بلانشيه، 2007، صفحة 89).

إذ، وبما أن الأفراد يسعون إلى إدارة صور أنفسهم في عملية تقديمها للآخرين كما أسلفنا، فقد قدم غوفمان نموذجه ليس كاستعارة مفيدة فحسب ولكن كمنظور منهجي ذو أهمية مركزية. مستعملا بعض الأدوات مثل: الأداء (**performance**)، الممثل، الجمهور، على الخشبة (**onstage**)، خلف الخشبة (**backstage**)، القناع، المخطوط (**script**)، الأثاث، الديكور، والإحالات المسرحية الأخرى، وذلك في دراسة حقيقة الفعل الاجتماعي (عزي، 1995، صفحة 49). ومن الأمثلة المبكرة التي ساقها غوفمان للتدليل على فكرته؛ طالبات الكليات الأمريكية في الخمسينات اللواتي كنّ يتغابين عمدا للتأثير في زملائهن الطلبة، وكان سكان جزر شتِلند، وهي الجزر التي أجرى فيها غوفمان معظم دراساته الميدانية لأشهر كتبه وهو "تقديم الذات في الحياة اليومية. كانوا يتركون واجهات بيوتهم تتآكل مخافة أن يعتقد الملاك أن ساكنها قادرون على دفع إيجار أعلى. وينظر غوفمان بهذا الشكل إلى جميع أوجه الحياة، من أكثرها خصوصية إلى أكثر جوانبها ظهورا وعلنية. فالمرأة التي تحس أنها أخطأت في حق زوجها، تقوم عادة بمحاولة استرضائه ما أمكن بإظهارها ودا زائدا غير معهود (كريب، 1999، صفحة 122).

فالسلوك الاجتماعي في نظر غوفمان مماثل للأداء الدرامي حيث يحاول الفرد الممثل أن يبلّغ صورة معينة عن نفسه للآخرين، وتتجسد نفس الظاهرة في محيط أوسع كالمؤسسة. فأية مؤسسة اجتماعية يمكن أن تدرس من زاوية إدارة الانطباعات، ففي المؤسسة تقسيم الأدوار، فهناك ما خلف العرض حيث يحضر الأداء بصفة

روتينية وهناك ما على الخشبة حيث يتم تقديم العرض. ونجد أن الوصول إلى هذا المناطق مراقب لمنع الجمهور من رؤية ما وراء العرض (عزي، 1995، صفحة 49). ويستخدم الأفراد عدة أشكال من إدارة الانطباعات" ليدفعوا الآخرين إلى الاستجابة والتجاوب مع ما يقومون به. ورغم أننا في العادة نقوم بإدارة الانطباعات على هذا النحو بطريقة محسوبة ومقصودة، إلا أننا نسلك هذا السلوك بصورة عفوية وغير واعية في أكثر الأحيان. فعندما يشارك أحد الشباب على سبيل المثال في اجتماع يضم شخصيات مهمة في تقديره، فإنه يرتدي زيّا رسميا وربما ربطة عنق، ويحرص على ان يكون سلوكه على مستوى معين من الانضباط واللياقة والتهذيب؛ غير أنه قد يرتدي ملابس الرياضة العرضية وتتغير أنماط سلوكه عندما يكون برفقة أصدقائه أو أفراد عائلته. وهو في الحالتين يقوم بإدارة انطباعات من يحيطون به (غدنر، 2005، صفحة 172).

ويقر غوفمان أن فكرة عرض ذواتنا أمام الآخرين ليست بجديدة، لكن ما ينبغي التشديد عليه هو أن بنية الذات ذاتها ليست أكثر من أداءنا لادوار الذات في المجتمع. لذلك قام بتجزئة الفرد ضمنيا إلى مكونين أساسيين: فمن جهة يمكن أن ننظر إليه باعتباره (مؤدي) مختلِق للانطباعات ينخرط بكل نقصه البشري في مهمة الأداء على الخشبة. ومن جهة أخرى يمكن النظر إليه باعتباره (شخصية)، وهي صورة للشخص بصفات عادة ما تكون جيدة، تصمم الأداء في الغالب لإظهار روحها وقوتها وصقاتها الرفيعة. إن سمات المؤدي وسمات الشخصية نسقان مختلفان بشكل محوري، إلا أن لكلاهما معنى يتعلق بالعرض الذي يجب تأديته **(Goffman, 1959, p. 252)**. فغوفمان يرى أن كل شخص في الحياة الاجتماعية له "وجه سلبي". هو الذي يتكتم عليه، ويمثل ميدانه الخاص أو روضة الأسرار. كما أن لكل شخص بالتوازي مع ذلك "وجها" إيجابيا"، هو وجه الصورة التي نقدمها عن أنفسنا إلى الغير وعن علاقتنا بالآخر. ولا يتم التواصل إلا إذا انتظم هذان الوجهان، أي أن يقع تفاوض متجدد بين هاتين القوتين المتناقضتين والمتكاملتين (بلانشيه، 2007، صفحة 89). ويرى غوفمان بوجوب التحلي بفعالية لتحقيق إدارة الانطباع كما يجب، حيث يقول غوفمان: " إذا سعى الفرد إلى توجيه سلوك الآخرين بوسائل؛ المثال، التنوير، الإقناع، التبادل، الحيلة، السلطة، التهديد، العقاب، الإجبار، الخ. فإنه من الضروري وبغض النظر عن موقعه السلطوي، التبليغ بفعالية ما يريده أن يتحقق، ما يستعد القيام به لتحقيق ذلك، وما سيقوم به إذا لم يتحقق. فالسلطة من أي نوع لابد أن تلبس بوسائل ذات مفعول لعرضها، وستكون لها تأثيرات مختلفة بناء على الكيفية التي تقدم بها دراميا" (عزي، 1995، صفحة 50).

إن تأمل فكرة غوفمان هذه في تشبيه الحياة اليومية بعرض مسرحي تجعلنا مجبرين كما يقول كريب على الإقرار أن عملية التصنع أو "التحكم في الانطباعات" تقع باستمرار في حياتنا، كما لو كنا جميعا نعمل مندوبي إعلانات لذواتنا. ونحن نستخدم محيطنا المادي مجالات للتمثيل تاركين مساحات للخلوة "وراء الكواليس"، نلوذ إليها طلبا للراحة من عناء التمثيل (كريب، 1999، صفحة 122). ليس ذلك فقط، ولكن هذا المنظور يجعلنا نرى الحياة بشكل أكثر وضوحا وبساطة وصدقا. وبالتالي فإن تبني هذا المنظور قد يكون مدخلا (اجتماعيا، نفسيا، لسانيا، أنثروبولوجيا) مناسبا للاقتراب من الظاهرة الاتصالية وفهمها بعمق في سياقها الاجتماعي التفاعلي اليومي. وتتعدد إمكانية تطبيق هذا المنظور على مجالات متنوعة، فيمكن الاستناد إليه عند دراسة الاتصال المؤسساتي (الإشهار، العلاقات العامة، تنشيط المبيعات...)، بالإضافة إلى دراسة الاتصال الاجتماعي في الفضاءات المختلفة (المنزل، الأسواق، المساجد، المدارس...) ، كما يمكن الاستناد إليه لدراسة الاتصال عبر الميديا الجديدة وشبكات التواصل الاجتماعي، كما تتعدد المجالات التي يمكن تطبيق هذا المنظور من خلالها؛ السياسي منها والثقافي، والاجتماعي، إلخ.

2.3 نظرية تحليل الإطار؛ الحياة كأطر:

يعتبر غوفمان المؤسس الأول لنظرية "تحليل الأطر الإعلامية" - التي طورها فيما بعد روبرت انتمان (**Robert Entman**)- وذلك من خلال كتابه تحليل الإطار (**Frame Analysis**) والذي ألفه سنة 1974، حيث ناقش قدرة الأفراد على تكوين مخزون من الخبرات يحرك مدركاتهم، ويحثهم على حسن استخدام خبراتهم الشخصية، وذلك عن طريق اختيار أطر إعلامية مناسبة تضفي على المضمون معنى ومغزى، وكان الهدف من وضع هذه النظرية هو تقديم نسق منظم حول طريقة استخدام التوقعات، قصد تفسير وإضفاء معنى لمواقف الحياة اليومية للأشخاص. وتركز النظرية كما وضعها غوفمان على الطريقة التي يتعلم من خلالها الأشخاص، كيفية تفسير عالمهم الاجتماعي بصورة نمطية متكررة، ولخلق إطار تصوري لا بد من الأخذ بالاعتبار عنصرين أساسيين:

أولا: المحتوى والسياق الاجتماعي الذي يتم فيه تحديد وصياغة الأطر.

ثانيا: النتائج والعواقب السياسية والاجتماعية طويلة المدى، والمتعلقة بالأطر التي يتم تعلمها من وسائل الإعلام (نصيرة، 2012، صفحة 61).

و"الإطار" كما يعرفه غوفمان يشير إلى مجموعة معينة من التوقعات التي يتم استخدامها، من أجل تفسير موقف اجتماعي بصورة

جيدة، في نقطة محددة من الزمان (نصيرة، 2012، صفحة 56). وفي كتابيه "تحليل الإطار" و"أشكال الحديث" ، تناول غوفمان "الإطار" كمصدر معرفي، وكتنشئة اجتماعية. وأداة يمكن استخدامها في تنظيم تجربة تفاعلية(A.Green, 1997, p. 379) . تتضح من هذا التعريف الأهمية التي حاول غوفمان أن يبرزها، وينسبها إلى الإطار الذي لا يقوم فقط بتنظيم تجربة تفاعلية معينة ولكنه يتحكم فيها وفي مساراتها، بل إنه يرقى كي يصير مصدرا لمعرفة الفرد خاصة في جانبها الاجتماعي.

والحقيقة أن نظرية تحليل الإطار، لا تبتعد كثيرا عن لغة ومفاهيم نظرية إدارة الانطباعات، فغوفمان بقي متمسكا بالمنظور المسرحي، وفيا لمصطلحاته، موظفا إياها كقاعدة لشرح وتفسير كيفية تحليل الإطار؛ إطار المشاركة في تجربة تفاعلية معينة. يلخص غوفمان في كتابه تحليل الإطار، كيفية تحليل إطار ما: بإعطاء مثال حالة نموذجية، تتكون من ثلاثة أو أربعة أشخاص يؤدون مهمة فعلية في الوجود الآني لبعضهم البعض؛ ما يمثل باختصار شريطا من النشاط اليومي، ثم يتساءل: ما الذي يمكن أن يجده تحليل الإطار ليقوله عن المشهد والمشاركين فيه؟ ويجب من خلال ثلاثة نقاط:

أولاً، المسارات أو قنوات النشاط؛ افترض أن هناك نشاط رئيسيا، خطا للقصة، وأن هناك حدوداً مهمة فيما يتعلق به. افترض على الأقل أربعة مسارات تابعة، أحدها: أحداث مستدامة، مسار اتجاهي، اتصالات متراكبة، ويتعلق الرابع بالكتمان.

ثانيا، التصفيح؛ الشريط قيد التحليل من المرجح أن لا يكون موجودا.

ثالثا، مسألة وضعية المشاركة؛ تعني المحادثة التي تتم بين شخصين في مكان معزول، في التحليل الأولي، حيث يكون تقاسم كامل لوضعية المشاركة الصادقة، وتغاضيها عن تبادل المتحدثين والمتلقين للأدوار.

لكن وسع في هذه الاحتمالات، يقول غوفمان، أضف مشاركاً ثالثاً، ويجب أن يسمح للمتحدث أن يخاطب المشتركين ككل أو أن يفرد شخصاً آخر بعينه، حيث تُجبر الحالة الأخيرة على التمييز بين المتلقين المعنيين وغير المتلقين. (ومن ثم يمكن ملاحظة أن المتلقي الذي لم يتم التعامل معه، وخاصة المتلقي المتزامن، قد يتراجع إلى حد ما عن المشاركة العادية وينظر إلى المتكلم والمتكلم اليه ككل واحد، ليتم مشاهدتهما كما لو أنها مباراة تنس أو عرض على خشبة المسرح) **(Goffman, 1986, pp. 564-565)**.

زيادة على ما سبق، تجدر الإشارة إلى أن غوفمان قد جادل أنه يمكن تطوير العديد من عمليات التصفيح (طبقات الإطار) في أي موقف وأن المعلومات من قنوات متعددة يمكن أن تتوافر خلال أي تفاعل معطى **(A.Green, 1997, p. 381)**. ويشير غوفمان بكلمة "موقف" إلى موقع أو خيار يأخذه الفرد في قوله لعبارة لغوية. يشمل ذلك مفتاحا معينا يسمح بتفسير الكلام أو الدور المشارك الذي يلعبه المتكلم أو السامع حيث يقول: "لننظر الآن إلى الموقف وتغيراته. بعبارة أخرى، لننظر إلى المعاني المختلفة التي يمكن لشخصية المتكلم أن تظهر فيها، أي التقديرات الشخصية التي يمكن اكتشافها في ما يقال ويُفعل على خشبة المسرح" (دورانتي، 2013، صفحة 479). والموقف أيضا حسبه، نوع من الخطاب ما فوق البراغماتي يجعل السامع يعرف كيفية فهم القول الذي يؤخذ، والمشهد الذي يجب وضعه فيه. والشخصية التي تقوله أو يقال لها أو بالنيابة عنها. نجد دائما موضوع "الحياة كخشبة مسرح" في عمل غوفمان الخاص بالتفاعل الاجتماعي حاضرا يقول دورانتي، مستشهدا بهذا النص من كتاب تحليل الإطار لغوفمان: "أقترح إذا أن ما يسعى المتكلمون إلى فعله غالبا لا يقضي بإعطاء معلومات لمستلم بل بتقديم مسرحية لجمهور. يبدو فعلا أننا نمضي معظم الوقت، ليس في إعطاء معلومات بل في عرض أنفسنا. وانظر: لا يرتكز هذا التصنع المسرحي على مجرد عروض لمشاعرنا أو إظهار مزيف لعفويتنا أو أي حزن أو فخر قد نظهره في مسرحية. فالتوازي بين المسرح والمحادثة أعمق من ذلك بكثير" (دورانتي، 2013، صفحة 480).

ويثير غوفمان مفاهيم مرتبطة بالإطار، فوفقا له، فإن **إطار نشاط** ما، متجذر في البيئة، بطرق عديدة منها: (1) من خلال استخدام المشاركين للأقواس المعترضة (مطرقة الرئيس التي تدعو إلى عقد اجتماع ثم تأجيله، صيغ بداية السرد أو إنهائه؛ في يوم من الأيام، وعاشوا بسعادة وهناء، أيضا مثال آخر: الإشارات المعطاة للوقت في لعبة كرة القدم) (2) من خلال فعل الحضور الجسدي للمشاركين (مثال: العلاقة الفيزيقية لشخص ما لتبني دور تفاعلي تكون متوازنة عندما يتم تعيين ممثل للعب دور الشرير لان الممثل يمكن أن يسخر خاصة بشكل فعال) أما وضوح الإطار؛ فيعني التدبير الذي يتم الحصول عليه عند تشارك جميع المشاركين لإجماع حول ما يجري، ويمكن أن يكون ملتبسا في حالات؛ (1) تأطير الخطأ، (2) إطار النزاعات. أما إطار المشاركة (أي مستوى الانخراط في نشاط مؤطر) فيتعرض للمساءلة حين يكسر المشارك الإطار (بمعنى ينخرط في نشاط لا يمكن تطبيق الإطار الرسمي عليه) **(A.Green, 1997, p. 380)**.

لا شك أن هذه النظرية مثلها مثل نظرية إدارة الانطباعات، صبت اهتمامها على الاتصال البينشخصي (المواجهي)، وهي كما تمت الإشارة إليه تولي أهمية كبيرة للسياق في تحليل الأطر التي يتعلمها الفرد لتصير وسيلة (ربما غير واعية) لفهم ما يجري من حوله من أحداث من خلال مجموعة من التوقعات في أزمنة وأمكنة محددة. هذه النظرية التي تعتبر كنظرية جزئية في إطار المنظور المسرحي لغوفمان، صارت تستخدم لتفسير ظواهر اتصالية وإعلامية أكبر تتعدى حالات الاتصال وجها لوجه. بل إن البعض صار يتجاوز إسهام غوفمان (التفاعلي الرمزي) التأسيسي، وصار يستحضرها أحيانا كمبحث داخل نظرية ترتيب الأولويات، ولهذا الفعل بعض الإشكالات الابيستمولوجيات على اعتبار اختلاف المرجعية المعرفية للنظريتين. بل إن النظرية خاصة في بعض الأدبيات العربية (على شحها)، صارت غريبة عن فكر غوفمان ومنظوره المسرحي.

4. نقدا لغوفمان؛ حدود التلاقي والإبداع:

مثله مثل باقي أقرانه من العلماء الذين قدموا بجرأة علمية فارقة أفكارا مهمة وممارسات بحثية متميزة في العلوم الاجتماعية والإنسانية، تلقى غوفمان مجموعة من الانتقادات التي خلقت نقاشا مفيدا، لأفكاره ولبراديغم التفاعلات الرمزية التي ينتمي إليها، فضلا عن إثراء الفكر الاجتماعي بصفة عامة.

من بين الانتقادات الموجهة إلى غوفمان، أن التفسيرات التي يقدمها ما هي إلا ترديد لمسلمات جورج ميد في التفريق بين (**I**) والـ (**Me**)، وظفها فيما بعد ليعيد وصف مختلف أشكال الفعل مستخدما المماثلة المسرحية (كريب، 1999، صفحة 123). والحقيقة أن فضل جورج ميد كبير ولا يمكن نكرانه بأي حال من الأحوال، ليس فقط على غوفمان، ولكن على كل الباحثين المنطوين تحت مظلة التفاعلات الرمزية، الذين تأثروا بشكل قريب أو بعيد بأفكار نظريته الموسومة **بنظرية أخذ الأدوار** (أو نظرية التقمص الوجداني كما يطلق عليها أيضا). حيث يرى جورج ميد في هذا الشأن أن جوهر العملية الاجتماعية للاتصال يتطلب من الفرد أن يتبنى أدوار الآخرين، حيث أن مفهوم الفرد لذاته يولد من خلال الاستجابة للذات من وجهة نظر الآخرين، ويذهب ميد إلى الاعتقاد بأننا وبدون وعي وفي معظم الأحيان نرى ذواتنا كما يصورها لنا الآخرون تماما وهذا يعني أن هناك علاقة مباشرة وتبادلية بين ما يراه الآخرون فينا كذوات واتجاهاتهم نحونا وتصوراتنا كما نعيشها في حقيقة الأمر (كربوش، 2005، صفحة 102).

من بين الأسماء التي حاولت إحياء جانب من مفهوم ميد لأخذ الدور، نجد جاكوب مورينو وذلك في مؤلفه "من سوف يكتب له البقاء" الذي نشر عام 1934، بالإضافة إلى منشوراته العديدة الأخرى في المجالات التي أسسها في أمريكا، إذ أن "مورينو" نظر إلى التنظيم الاجتماعي على انه شبكة الأدوار التي تحدد مجرى السلوك. وقد صنف مورينو عددا من الأنماط الخاصة بالأدوار المختلفة، ومنها **الأدوار السيكوماتيكية** والتي يكون فيها السلوك مرتبطا بالحاجات البيولوجية والمشروطة بواسطة الثقافة والتي تمارس فيها الدور وهي غير رشيدة. **الأدوار السيكودراماتيكية (dramaticPsycho):** وهي التي يتصرف فيها الأفراد وفقا لتوقعات سياق اجتماعي معين. **الأدوار الاجتماعية (Social Role):** وهي التي تجري فيها الأفراد التوقعات الأكثر عمومية للفئات الاجتماعية التقليدية المختلفة (كربوش، 2005، صفحة 136).

من هنا يمكن النظر إلى جهود غوفمان خاصة فيما يتعلق بنظرية إدارة الانطباعات، على أساس أنها إسهام مميز وعميق ولكنه لا يخرج عن إطار تطوير نظرية الدور في حد ذاتها، فإسهامات غوفمان تهتم (بل تتأسس) على نفس مفاهيمها المحورية : الذات، الدور، التوقعات، المعنى. وهي المفاهيم التي تشكل بالاظافة إلى مفاهيم أخرى الهوية الفكرية والعلمية لمدرسة التفاعلات الرمزية التي تقول بأولوية المعنى على الاجتماعي، مع اعتبار أن المعاني الكامنة في التفاعل الاجتماعي الرمزي تمثل حقيقة الحياة الاجتماعية. ولكن أيضا علينا الاعتراف أن غوفمان قد طور الكثير من الأفكار وأنتج الكثير من المفاهيم التي تنسب اليه. وبعض تلك المفاهيم تمت الإشارة إليها في العنصر الأول من هذه الورقة البحثية. دون الزعم بعدم وجود تأثر وتأثير كما يحدث مع جميع الباحثين في جميع التخصصات الاجتماعية والإنسانية.

وفي هذا الصدد لا يمكننا أن نغفل مفهوم، أحد رواد التفاعلات الرمزية المهمين وهو تشارلز هورتون كولي عن **"المرآة الاجتماعية"**؛ حيث اقتنع هذا الأخير بأن الناس يستطيعون الانتساب إلى بعضهم البعض ليس على أساس صفاتهم الموضوعية كما هي موجودة في الواقع، ولكن من خلال "الانطباعات" التي يخلقها كل منهم لدى الآخرين من خلال التفاعل بينهم. ووصف كولي هذه "الانطباعات" باسم "الأفكار الشخصية". فنحن نكوّن "فكرة شخصية" عن كل شخص نعرفه، وبمعنى أشمل نكون "فكرة شخصية" أيضا عن الناس في قطعات مختلفة إذا نظرنا إلى كل منها كجماعة. إذن، تصبح "الفكرة الشخصية" بناء للمعنى، أي مجموعة من الصفات التي نتخيلها، ونسقطها على كل من أصدقائنا ومعارفنا كتفسير لشخصيتهم الواقعية. كما أننا نكون أيضا "فكرة شخصية" تفصيلية عن أنفسنا، أطلق عليها الاسم المثير "النظر إلى مرآة أنفسنا"، لأنه اقتنع بأننا نحصل على الانطباع بما نحن عليه شخصيا، كبشر، بمراقبة تصرفات الآخرين تجاهنا. فهناك نوع من المرآة الاجتماعية نرى فيها الناس يقبلوننا أو يرفضوننا يعجبون بنا أم يكرهوننا،

يوافقون على تصرفاتنا أم يرفضوننا، ومن هذه المعلومات فإننا نصل عن طبيعة أنفسنا: "كل منا للآخر بمثابة مرآة تعكس صورة الآخر عندما يمر أمامها" يقول كولي (ديفلير و روكيتش، 1993، صفحة 351).

يتضح من كلام تشارلز كولي مستوى الشبه بينه وبين فكرة غوفمان حول إدارة الانطباعات حد القول بالمطابقة، لولا أن هذا الأخير، لم ينكر عدم أسبقيته في الحديث عن الموضوع الذي يبدو قديما ومتناولا، ولكنه كما تمت الإشارة إليه سابقا أضاف إليها "المنظور المسرحي"، والذي من خلاله نظر إلى الذات على أنها ليست أكثر من أدائنا لادوار الذات في المجتمع. أي أنه لا يمكننا أن نتحدث عن ذات محضة، ولكن عن مجموعة ذوات هي ما يشكل في الأخير هوية الفرد في مجتمع معين. كما يمكن الحديث أيضا عن الإسهام المميز لغوفمان من خلال مفهوم "الأداء" الذي على ما يبدو قد أفاد بشكل أو بآخر "الأدائية" كنظرية تستحضر لفهم الجندر عند النسوية، وبشكل خاص عند جوديت باتلر.

من النظريات القريبة جدا من أفكار غوفمان نجد أيضا **نظرية الوسم** (**Labeling theory**) التي نشأت في منتصف الستينات من القرن الماضي في الولايات المتحدة في لحظة نزاع سياسي وثقافي كبير، حيث وضع أبرز منظري النظرية دور الهيئات الحكومية، والعمليات الاجتماعية بشكل عام، في خلق الانحراف والجريمة (**Ray Paternoster, 2017**). وفي سياق دراسة الفعل الاجتماعي الرمزي، اعتبر بيكر هوارد الذي غالبا ما يُذكر اسمه كمؤسس لهذه النظرية،، أن مسلك الباحث يتعين دائما أن يذهب أبعد مما توحي به التمظهرات الآنية للحقيقة، أي أن نهج الباحث هو جهد يظهر القناع الذي يكون خلف الستار الذي نراه. وفي هذا اتجه بيكر إلى دراسة ظاهرة الانحراف (أو الجنوح) (**deviances**) وأظهر أن الجماعات البشرية تنشئ ما يسمّى بالانحراف بتطبيق مجموعة من القواعد على الأفراد الذين يقعون خارج هذه القواعد، ثم نتيجة لذلك تتم تسميتهم بالغرباء (**outsiders**). (عزي، 1995، صفحة 34).

فهذه النظرية تنطلق من افتراض أساس؛ أن الناس (يُعرفون أنفسهم ويتصرفون بطرق تعكس كيفية تصنيف الآخرين لهم)، وهي ترتبط أكثر بعلم اجتماع الجريمة والانحراف. حيث يتم استخدامها للإشارة إلى كيف أن العمليات الاجتماعية لوسم وتناول شخص ما على انه منحرف جنائيا، تعزز في الواقع السلوك المنحرف، وتحمل تداعيات سلبية على ذلك الشخص لأن الآخرين من المحتمل أن يكونوا متحيزين ضدهم بسبب هذا الوسم. وترى هذه النظرية أنه جوهريا لا يوجد فعل إجرامي. إذ يتم تحديد تعاريف الإجرام من قبل من هم في السلطة من خلال صياغة القوانين وتفسير تلك القوانين من قبل الشرطة والمحاكم والمؤسسات الإصلاحية. وبالتالي، فإن الانحراف ليس مجموعة من خصائص الأفراد أو المجموعات، بل هو عبارة عن عملية تفاعل بين الانحرافات واللاانحرافات والسياق الذي يتم فيه تأويل الإجرام. ويصبح الشخص المنحرف موصوما (من الوصم) بأنه مجرم أو منحرف، ومن المرجح أن يتم النظر فيه ومعاملته على أنه غير جدير بالثقة من قبل الآخرين. ومن المحتمل أن يقبل الشخص المنحرف التسمية التي تم وسمه بها، فينظر إلى نفسه كمنحرف، ويتصرف بطريقة تفي بتوقعات تلك التسمية (**Crossman, 2015**).

إن من اطلع على الأفكار الواردة في كتاب "الوصمة" لغوفمان، سيلحظ حتما مدى التطابق بين أفكار بيكر عن الانحراف وما جاء في هذا الكتاب، إذ تحدث غوفمان في كتابه هذا عن المعاملات الاجتماعية والنظرة القيمية النقدية للأفراد اتجاه المعوقين. بالاظافة إلى فئات أخرى وذلك باستخدام صفات تشنيعية تترك لدى الموسومين بصمات وعلامات سيئة تسيء إلى سمعته وتشوه صورته وذاته لدى الآخر، مما يضطر الأطراف المتفاعلة معه إلى التقليل من درجة الاحتكاك به إن لم نقل الابتعاد عنه نهائيا. (كربوش، 2005، صفحة 145). ورغم أن كلا الكتابين ظهرا أول مرة عام 1963، إلا انه يرجح أن يكون بيكر من تأثر بأفكار غوفمان السابقة من خلال كتاباته السابقة (رسالة الدكتوراه وكتابه ذائع الصيت: تقديم الذات في الحياة اليومية)، حيث قدم له الشكر على مساعدته في تقديم كتابه الموسوم بـ "الغرباء" (**Becker, 1963, p. viii**). مع عدم نسيان فكرة انتمائهما معا لتيار فكري واحد يركز على بناء المعنى وأسبقية ذلك على الاجتماعي ، وهو براديغم التفاعلات الرمزية كما تمت الإشارة اليه سابقا. وهو الأمر الذي يبرر تلك التقاطعات التي تجمعهما، والتناص الذي يبدو انه لم يكن من سبيل لتجاوزه.

5. خاتمة/ غوفمان بين الحضور والغياب:

عندما تم اكتشاف إصابة إرفنغ غوفمان بالسرطان في صيف عام 1982، كان يحضر خطابا لإلقائه في موعد تنصيبه كرئيس للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع في المؤتمر السنوي الذي يعقد في سبتمبر. وعلى الرغم من أنه لم يكن قادرا على تقديم الخطاب شفويا، إلا أنه أنهى الورقة قبل وفاته بتاريخ 19 أكتوبر 1982. لقد كان عنوان هذا العمل الأخير "نظام التفاعل" (**The Interaction Order**) والذي نشر في مجلة (**American Sociological Review**). إنه اللقب الذي أعطاه غوفمان لتركيزه على مساره المهني الكلي، وهو مجال التفاعل الاجتماعي وجها لوجه حيث يكون فردان أو أكثر ضمن الحضور الفيزيقي لبعضهما (والاس و وولف، 2011، صفحة 397).

هذا العمل يلخص إرثه الذي قضى جزءا جوهريا منه يدرس ضحايا الظلم والاضطهاد، مركزا على الناس في المواقع الخاضعة، والجماعات المحرومة من حقوقها الشرعية، أو الجماعات المكذبة وغير الموثوقة. نرى هنا أن غوفمان يظهر حقل القوة في النظام الاجتماعي وإدارة الواقع الاجتماعي. ومن أجل فهم الأنماط المتكررة للتفاعل بين الأفراد الخاضعين والمهيمنين، يحول غوفمان انتباه علماء الاجتماع إلى عالم الأفراد المهيمنين. وفي توصيته لأن يكون الجهد الشامل مكرسا لاختبار الناس في مواقع القوة في مجتمعنا، فإنه يدفع الباحثين الذين يتبنون المستوى السوسيولوجي قصير المدى للتعامل مع المفهوم الأساس للمنظرين الصراعيين، أي علاقات القوة (والاس و وولف، 2011، صفحة 400). فغوفمان لم يكن من أولئك الذين تستهويهم الكتابة في المكاتب المكيّفة، بل إن ديدنه كان التخلص من المسافة التي تفصله كباحث عن الظاهرة محل الدراسة والانغماس فيها هذه الظاهرة التي لم تكن سوى الظاهرة الاتصالية (التفاعلية) وجها لوجه. والتي شغلته منذ أطروحة الدكتوراه خاصته إلى آخر محاضرة كتبها كما رأينا.

ويبدو أن هذا الإرث وهذا الانشغال، سيدوم طويلا وسينتشر وسيتطور أكثر فأكثر، أحد المؤشرات على ذلك؛ ما وقع عام وفاته، وهو حدث على ما يبدو عليه بالغ الرمزية، إذ وفي نفس العام الذي توفي فيه (1982)، ولدت ابنته آليس غوفمان، التي قررت فيما بعد أن تسلك مسلك والدها وتتبع آثاره، وهي الآن تدرس علم الاجتماع في جامعة ويسكونسن-ماديسون. وهي التي كانت قد أمضت ست سنوات تعيش في حي واحد من أحياء الزنوج في فيلادلفيا، لإجراء دراستها الإثنوغرافية حول ملاحقات الشرطة وتعاملها مع السود أطفالا وشبابا في إطار نظام القانون الجنائي الأمريكي، وكيف يعيد هذا الأمر تشكيل حياة العائلات في الأحياء الفقيرة السوداء في أمريكا. هذه الدراسة نالت بها درجة الدكتوراه عام 2014، ونشرتها ككتاب عام 2015 تحت عنوان (الجري: الحياة الهاربة) **(Run: Fugitive Life)**، لقي الكتاب صدى واحتفاء واسعين، حتى انه اختير من بين مائة كتاب صدر في ذلك العام. وهي بصدد نشر كتاب على خطى كتاب والدها ذائع الصيت "تقديم الذات في الحياة اليومية"، وذلك تحت عنوان: **(Alice (Mapping the Fatefulness in Everyday Life Goffman, 2017)**.

ولعل هذه الورقة البحثية كمساهمة متواضعة، تفتح نافذة للاهتمام بفكر إرفنغ غوفمان في المنطقة العربية وفي الجزائر، على اعتبار أن أفكاره ورغم مرور 36 سنة منذ وفاته، ما زالت تلقى رواجا واستحضارا متزايدا في فضاء العلوم الاجتماعية والإنسانية "الغربية"، لفهم مختلف الظواهر التي تدور في فلك الاتصال والاتصال البينشخصي، والاتصال الافتراضي عبر الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، هذه الأخيرة التي يبدو أنها صارت حقلا خصبا لتطبيق تلك الأفكار العميقة، فالاتصال عبر شبكات التواصل الاجتماعي أعاد للاتصال المواجهي مكانته وإن كان على نمط جديد، كما أن منظور غوفمان قد تزود بمناهج وأدوات عابرة للتخصصات (علم الاجتماع، علم النفس الاجتماعي، أنثروبولوجيا الاتصال، التداولية) تجعله قادرا على التوغل عميقا في الظاهرة المدروسة لفهمها كما هي؛ دون إحداث قطيعة ابيستمولوجيا بينها وبين التنظيرات العلمية المبالغ فيها والتي قد تشوه حقيقتها.

6. قائمة المراجع: ت1تتبع

- أرمان و ميشال ماتيلار. (2005). *تاريخ نظريات الاتصال*. ترجمة .نصرالدين لعياضي و رابح الصادق. بيروت. المنظمة العربية للترجمة.
- إيان كريب. (1999). *النظرية الاجتماعية (من بارسونز إلى هابرماس)*. الكويت سلسلة عالم المعرفة. الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- دورانتي ألسندرو .**(2013)** .*الأنثروبولوجيا الألسنية*. ترجمة فرانك درويش. بيروت. المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسة الوحدة العربية.
- ديفلير ميلفين وساندرا روكيتش. (1993). *نظريات وسائل الإعلام* .ترجمة كمال عبد الرؤوف. القاهرة ,مصر. الدار الدولية للنشر والتوزيع.
- رضوان بوجمعة. (2010). *الاتصال التقليدي في الجزائر (مقاربة أنثروبولوجية)*. قسنطينة/ الجزائر. مخبر علم اجتماع الاتصال، جامعة منتوري-قسنطينة.
- روث والاس وألسون وولف. (2011). *النظرية المعاصرة في علم الإجتماع (تمدد آفاق النظرية الكلاسيكية)*. ترجمة محمد عبد الكريم الحوراني. عمان/ الأردن. دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- عبد الرحمن عزي. (2003). *دراسات في نظرية الاتصال (نحو فكر إعلامي متميز)*. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.
- عزي عبد الرحمن. (1995). *الفكر الاجتماعي المعاصر والظاهرة الإعلامية الاتصالية (عض الأبعاد الحضارية)*. الجزائر. دار الأمة.
- غدنر أنتون. (2005). *علم الاجتماع*. ترجمة فايز الصياغ. يروت. المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية.
- فيليب بلانشيه. (2007). *التداولية من أوستن إلى غوفمان*. ترجمة صابر الحباشة. دمشق.دار الحوار للنشر والتوزيع
- فيليب كابان و فرانسوا دورتيه. (2010). *علم الاجتماع (من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية)*. ترجمة إياس حسن. دمشق. دار الفرقد.

- كربـوش مـراد. (2005). *الاتصـال الـداخلي في الإدارة العموميـة الجزائرية وفق المنظور الدرامي*. رسالة دكتوراه غير منشورة. قسم الإعلام والاتصال. كلية العلوم السياسية والإعلام. جامعة الجزائر.
- نصيرة تامي. (2010). *المعالجة الاعلامية لظاهرة الارهاب من خلال البرامج الحوارية في الفضائيات الاخبارية العربية المتخصصة :دراسة تحليلية مقارنة بين قناتي "الجزيرة "القطرية و"العربية "السعودية*. رسالة دكتوراه غير منشورة. قسم علوم الاعلام و الاتصال. جامعة الجزائر3.
- Becker, H. S. (1963). Outsiders (studies in the sociology of deviance. New York. The Free Press.
- Bonicco, C. (2013, 1 20). *Goffman et l'ordre de l'interaction : un exemple de sociologie compréhensive*. Retrieved 05 20, 2018, from philonsorbonne: https://journals.openedition.org/philonsorbonne/102#ftn1
- Crossman, A. (2015). *An Overview of Labeling Theory*. Retrieved 02 18, 2018, from https://www.thoughtco.com/labeling-theory-3026627 (18/02/2018)
- Dubar, C. (2018). *L'order de l'interaction* . Retrieved 06 20, 2018, from https://www.universalis.fr/encyclopedie/erving-goffman/2-l-ordre-de-l-interaction.
- Gerg Smith. (2006).*Erving Goffman*. New York. Routledge.
- Goffman, E. (1959). *The Presentation of the self in Everyday Life*. New York. Anchor Book.
- Goffman, E. (1961). *Asylums: Essays on the Social Situation of Mental Patients and Other Inmates*. New York: Anchor Books.
- Goffman, E. (1986). *Frame Analysis (An Essay on the Organization of Experience)*. new york. Northeastern University Press edition.
- Melançon, J. (2008, 03 20). *La compréhension phénoménologique du monde social*. Consulté le 20 06, 2018, sur La Vie des idées: http://www.laviedesidees.fr/La-comprehension-phenomenologique.html
- Pomona. (2017*). Alice Goffman*. Retrieved 04 20, 2018, from pomona: https://www.pomona.edu/events/mapping-fatefulness-everyday-life-lecture-alice-goffman
- Reguera, J. I. (2016, 2 16). *Books of the Century; Top 100 Sociological Books*. Consulté le 5 20, 2018, sur http://www.isa-sociology.org/books/vt/bkv_000.htm.
- Smith, G. (2006). *ERVING GOFFMAN*. New York, usa: Routledge.
- Thomas A.Green. (1997). *Folklore (an Encyclopedia of Bliefs, Customs, Tales, Music, and Art)*. California. santa Barbara.
- Tom Burns. (1992). *Erving Goffman*. New York, London. Routledge .
- Verhoeven, J. C. (1993). An Interview With Erving Goffman, 1980. *Research on Language and Social Interaction* , 26 (3)
- Ray Paternoster.(2017). *Labeling Theory*. Retrieved 06 20, 2018. from oxfordbibliographies:http://www.oxfordbibliographies.com/view/document/obo-9780195396607/obo-9780195396607-0078.xml